الباب الثالث

الكناية

لمحة عن تطور لفظ «الكناية»

الكناية مصطلح قديم، فقد استعمله شريح الكندى «٧٢هـ» فيما أورده الجاحظ[1] من مثل قوله «الحدة كناية عن الجهل».

* * *

وتحدث سيبويه «ت ١٨٠ هـ» عن الكناية وأراد بها الإخفاء والستر، وذلك بأن يتكلم الشخص بشيء ويريد به شيئًا آخر، فيقول : «تقول العرب : يا فلُ، وإنما بُنى على حرفين، ولم يجز فى غير النداءِ، لأنه إذا جعل اسما لا يكون إلا كناية لمنادى، وأما «فلان» فإنما هو كناية عن اسم سمى به المحدثُ عنه، وقد اضطر الشاعر فبناه على حرفين، وفى هذا المعنى، قال أبو النجم :

* فى لجةٍ أَمْسك فلانًا عن فلِ[2] *

فـ «فلان» و «فل» كناية عن شخص مجهول أو شخص معين لا يعرف اسمه، غير أن «فلُ» استعملت على حرفين فقط فى النداءِ، وجاءت فى البيت على حرفين بدون نداءِ ضرورة.

وبهذا نرى أن سيبويه أراد من الكناية معناها اللغوى وهو الستر والإخفاء.

* * *

(١) البيان والتبيين جـ١/٢٦٣.

(٢) الكتاب جـ١/٣٣٣.

وجاء أبو عبيدة «ت٢٠٧ هـ»، فأطلق الكناية على نوعين من الأساليب:

١ - كل ما يفهم من الكلام من غير أن يذكر اسمه صريحًا، فبعد أن يذكر قوله تعالى: (كلُّ مَنْ عليها فان) (الرحمن ٢٦)، وقوله: (حَتَّى توارت بالحجاب) (ص٣٢) وقوله: (كلاَّ إذا بَلغتْ التراقِيَ) (القيامة ٢٦) عقب عليها بأن الله كنى في الأولى عن الأرض، وفي الثانية عن الشمس، وفي الثالثة عن الروح، من غير أن أجرى ذكرها؛ كما قال حاتم الطائي:

أَماوِيَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشْرجَتْ يومًا وضَاق بها الصَّدْرُ

يعني حشرجت النفس.

فاللفظ الصريح الموضوع للمعنى مستور ومختف وراء هذا اللفظ المذكور الذي كني به عنه.

٢ - الحديث عن الغائب، فبعد أن ذكر قوله تعالى: (حتَّى إذَا كنتم في الفلْك وجَرَيْنَ بهم بِريح طيبةٍ) (يونس ٢٢) عقب عليها بقوله: إنه رجوع من المخاطبة إلى الكناية، والعرب تفعل ذلك كقول النابغة الذبياني:

يـا دارَ مَيَّة بـالعَلْياءِ فـالسَّنـدِ أَقوتْ وطالَ عليها سَالِفُ الأَمَدِ

فقال: «يا دار مية» ثم قال: «أقوت».

وقد تنتقل من الكناية إلى المخاطبة كقوله تعالى: (الحمد لله رب العالَمين. الرحمن الرَّحيم. مَالكِ يوم الدين. إياكَ نَعبد وإياكَ نَستعين)[1].

ومثل هذه الصور عدها العلماء - فيما بعد - من قبيل الالتفات.

وكلا الصورتين عند أبي عبيدة لا ينطبق عليها صورة الكناية الاصطلاحية.

* * *

وفي بحوث الجاحظ «ت ٢٥٥ هـ» أشار إلى صور من الكناية في مثل قولهم:

---

(١) مجاز القرآن. البيان العربي ١١٣ ط أولى.

«فلان مقتصد» إذ جعله كناية عن البخل[١].

فهذه الصورة التى استتر فيها المعنى وراء لفظ آخر، أطلق عليها الكناية.

* * *

وفى بديع ابن المعتز «ت٢٩٦ هـ» عقد فصلا تحت اسم «الكناية والتعريض»[٢] وعدهما من محسنات الكلام، ولم يضف جديدًا، فلم يفرق بينهما، أو يعرف أحدهما.

* * *

أما المبرد «ت ٢٨٥ هـ»، فقد قسم الكلام إلى ضروب، وجعل الكناية أحد تلك الضروب، ثم جعلها على ثلاثة أضرب[٣].

١ - التعمية والتغطية، كقول النابغة الجعدى:

أكْنِي بغيْر اسمِها وقد عَلِم اللـ ـه خَفِيَّاتِ كلُّ مكتتَمِ

٢ - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال الله تعالى: (أُحِل لَكم ليلةَ الصِّيام الرَّفَثُ إلى نِسَائكم) (البقرة ١٨٧).

٣ - التفخيم والتعظيم، ومنه اشتقت الكنية، وإنما يقال كنى بكذا عن كذا، أى ترك كذا إلى كذا.

وهو أيضًا لم يضع تعريفًا للكناية لكنه قسمها، وفى تقسيمه هذا بيان لما تؤديه الكناية من فائدة فى صناعة الكلام.

* * *

ولما جاء قدامة بن جعفر «ت ٣٣٧ هـ» ذكر فى «ائتلاف اللفظ والمعنى» صورة بلاغية سماها «الإرداف» وعرفها[٤]: بأن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعانى

---

(١) البيان جـ١/٢٦٣.

(٢) البديع ١١٥.

(٣) الكامل جـ٢/٥.

(٤) نقد الشعر ١٧٨.

فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع. واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

بَعِيدة مَهْوَى القرْطِ إمَّا لنَوْفَل أبُوها، وإمَّا عبدِ شمس وهَاشم

فإنه أراد أن يصف طول الجيد، فلم يذكره بلفظه الخاص، بل أتى بلفظ يدل على معنى هو تابع لطول الجيد، وهو بعد مهوى القرط.

فقدامة لم يسم هذه الصور البلاغية بالكناية وإنما سماها الإرداف.

* * *

وأبو هلال العسكرى «ت ٣٩٥هـ» تكلم عن الكناية تحت اسم «الكناية والتعريض» وعرفها بقوله: وهى أن يكنى عن الشيء ويعرض به، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء، كما فعل العنبرى إذ بعث إلى قومه بصُرَّة شوكٍ، وصُرَّة رملٍ، وحنظلة، يريد: جاءتكم بنو حنظلة فى عدد كثير ككثرة الرمل والشوك، وفى كتاب الله عز وجل: (أَوْ جَاء أَحدٌ منكم مِنَ الغَائِطِ أو لامَسْتم النِّسَاء) (المائدة ٦)، فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء: كناية عن الجماع.

ثم قال: ومن التعريض الجيد ما كتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون، أما بعد: فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين، ليتطول عليه فى إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفع بهم، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته، والسلام.

فوقع فى كتابه: «قد عرفنا تصريحك له، وتعريضك بنفسك، وأجبناك إليهما، ووافقناك عليهما»[1].

ولا ندرى لماذ فرق فى الشواهد بين الكناية والتعريض، أكان يرى أن هناك فرقًا بينهما، ففرق فى الشواهد والتمثيل؟

---

(١) الصناعتين ٢٩٠.

فإن كان هذا مراده، فيكون هو السابق فى التفريق بين النوعين.

ولا إخاله رأى ذلك ولا علمه، بدليل أنه عقد فصلا آخر سماه «الإرداف والتوابع»، وأتى بأمثلة عديدة مما ينطبق عليها الكناية كقوله تعالى: (فيهِنَّ قَاصراتُ الطَّرْفِ)، وقصور الطرف فى الأصل موضوعه العفاف على جهة التوابع والإرداف، وقول عمر بن أبى ربيعة:

بعيدة مَهْوَى القرْطِ، إما لَنَوْفَلٍ أبوها وإما عبدِ شمس وهاشم

فإنه أراد أن يصف طول عنقها، فأتى بما دل عليه من طول مهوى القرط، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق[1].

وهذا مما يدل على عدم وضوح صورة الكناية أمامه، وغموض التفرقة بين الإرداف، والكناية، والتعريض.

* * *

وابن رشيق «ت ٤٦٣ هـ» بحث الكناية تحت باب الإشارة[2]، وقد جعلها إطارًا عامًا تشمل «الوحى، والإيماء، والتفخيم، والتعريض، والتلويح، والكناية والتمثيل، والرمز، واللغز، واللحن، والتورية، والتتبيع». ويلاحظ أنه جعل الكناية والتمثيل شيئًا واحدًا، واشتشهد لكل ذلك.

فالكناية مع غيرها من تلك المسميات تكوِّن باب الإشارة، وبذلك يصبح التعريض قسيما للكناية لا مرادفًا لها. وهكذا نرى أن الكناية عنده أوسع مجالا من الذين سبقوه، وأكثر صورًا، فما دامت قائمة على ستر المعنى وخفائه وراء لفظ آخر، فيدخل تحت هذا المعنى كل ما كان بهذه الصورة وإن اختلفت المسميات.

* * *

وجاء ابن سنان «ت ٤٦٦ هـ٢ب فتكلم عن الكناية تحت «جريان الكلام على

---

(١) الصناعتين ٢٧٥.

(٢) العمدة جـ١/٢٠٦ ومابعدها.

العرف العربى الصحيح»، فيقول[١] : «ومن هذا الجنس حُسْنُ الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح - وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة، وإنما قلنا فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح، لأن مواضع الهزل، والمجون، وإيراد النوادر، يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالا، ولكل غرض فنًّا وأسلوبًا. . . ثم أخذ يستشهد للحسن من الكناية، والقبيح منها مبينًا سبب الحسن والقبح.

وفى مكان آخر يتحدث عن «الإرداف والتتبع»[٢] ويجعلهما من نعوت البلاغة والفصاحة، ويمثل لذلك بما مثل به الآن للكناية شعرًا ونثرًا.

ويلاحظ أنه بحث الكناية وترك التعريض، ولعل ذلك استغناء بأحدهما عن الآخر.

* * *

وعبد القاهر الجرجانى «ت ٤٧١ هـ»، بحث الكناية فى عدة مواضع، فمما قال: «والمراد من الكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومىء به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: «هو طويل النِّجاد» يريدون طول القامة «وكثير رماد القدر» يعنون كثير القرى، وفى المرأة «نؤوم الضحى»، والمراد: أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، فقد أراد فى هذا كله - كما ترى - معنى ثم لم يذكره بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه فى الوجود، وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى»[٣].

---

(١) سر الفصاحة ١٥٥.

(٢) سر الفصاحة ٢٢١.

(٣) الدلائل ٥١.

فقد عرفها، وخرج تعريفها، وبين حسن تصويرها وقوة بلاغتها فى أسلوب رائق، وعرض شائق.

* * *

وجاء السكاكى «ت٦٢٦هـ» فعرف الكناية بقوله[١]: وهى ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: «زيد طويل النجاد» فينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة.

ثم قسم الكناية من حيث المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام.

كناية عن موصوف، وكناية عن صفة، وكناية عن نسبه.

كما قسمها من حيث مفهومها إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة وهو تقسيم منطقى يعتمد على العقل والمنطق - وكل هذه الأقسام تفيد الكناية غير أن بعضها أوضح من بعض.

وقد عاصر السكاكى ضياء الدين بن الأثير «ت٦٣٧هـ»، فتناول الأسلوب الكنائى تحت اسم «الكناية والتعريض[٢]» وقد صدر كلامه بعتابه الشديد على العلماء إذ خلطوا بين الكناية والتعريض، ولم يفرقوا بينهما، ولم يحددوا لكل منهما حدوداً فاصلة، ولذلك عرف الكناية - منفردة عن التعريض - بأنها لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز، ثم بين اشتقاقها اللغوى، ومثل لها بعديد من الأمثلة.

ثم أفرد كلاما عن التعريض[٣] وعرفه: بأنه اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى، فإنك إذا قلت لمن يتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إنى لمحتاج، وليس فى يدى شيء، وأنا عريان، والبَرْدُ قد آذانى، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم.

---

(١) المفتاح ١٨٩.

(٢) المثل السائر جـ٣/٤٩.

(٣) المثل السائر جـ٣/٥٦.

فابن الأثير بهذا قد فرق بينهما ووضع حدًّا لكل منهما.

ويؤكد هذه التفرقة بقوله: «والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى، وإنما سمى التعريض تعريضاً، لأن المعنى فيه يفهم من عُرضه - أى جانبه -

وهو بهذا يعد المفرق الحقيقى بين الكناية والتعريض - بصراحة ووضوح - وأصبح لكل منهما - عنده - منهجاً خاصًّا يغاير الآخر كل المغايرة.

معنى الكناية

قال تعالى: (يأيُّها الذين آمَنوا إذا قمْتم إلى الصلاةِ، فاغْسِلوا وُجُوهَكم وأيْدِيَكُمْ إلى المَرافِق، وامْسَحُوا برءُوسِكم وأرْجُلكم إلى الكعْبَيْن، وإنْ كنتم جُنباً فاطهَّرُوا، وإن كنتمْ مَرْضى، أو عَلى سَفر، أوْ جَاءَ أحدٌ منكم من الغائِطِ، أوْ لاَمَسْتم النسَاء، فَلَم تَجِدُوا ماءً فتيمَّمُوا صَعيداً طيباً) (المائدة ٦).

الغائط - فى الآية - : كناية عن النَّجْو - وهو ما يخرج من البطن - والغائط: اسم للمكان المنخفض من الأرض، وكانت العرب إذا أرادت قضاء حاجتها أبْعَدوا عن العيون إلى منخفض فُسمى بذلك لكثرة استعماله، فصار بمنزلة الصريح[1].

أما اللمس فى الآية، فقد ذهب الإمام الشافعى إلى أن المراد به هو مصافحة الجسد الجسد، فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة، وهذا هو معنى اللمس فى حقيقة اللغة.

وذهب غيره إلى أن المراد باللمس، ليس هو حقيقة اللفظ، وإنما ما يلزم هذا اللفظ وهو «الجماع»، واللمس كناية عنه.

---

(١) المنتخب من كنايات الأدباء ٦، وهذا لا يمنع أن يكون التعبير بالغائط من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية أو الآلية كما سبق.

ومن عادة القرآن العظيم الكناية عن «الجماع» باللمس، والرفث، والسِّر، والإفْضَاء، والدخول، والمباشرة، والغشيان، كقوله تعالى: (أُحِلَّ لكم ليلةَ الصِّيام الرَّفَثُ إلى نسائكم، هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهُنَّ، علم الله أنكم كنتم تَخْتَانون أنفسكم، فَتَاب عليكم وعفَا عنكم، فالآنَ باشروهُنَّ، وابْتَغوا ما كتب الله لكم[1]) (البقرة ١٨٧)، فالمباشرة كناية عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين، وكذلك الرفث.

وقوله: (هُوَ الذى خلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وجعَل منها زَوْجَها ليَسْكن إليها فلما تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً) (الأعراف ١٨٩).

فالكناية لغة: لفظ يتكلم به الإنسان ويريد غيره، أنشد الجوهرى:

إنى لأكنو عن قذور بغيرها وأُعْرب أحياناً بها وأُصَارح[2]

واشتقاقها من الستر، يقال كنيت الشيء إذا سترته، وإنما أجرى هذا الاسم على هذا النوع من الكلام لأنه يستر معنى ويظهر غيره، ولذلك سميت كناية.

وفى اصطلاح البيانيين: لفظ أريد به لازم معناه الحقيقى، مع جواز إرادته لذلك المعنى الحقيقى. فالصلة بين المعنى الحقيقى والمجازى فى الكناية هى صلة التلازم، وهى فى الاستعارة صلة التشابه.

* * *

ومن أمثلة الكناية فى القرآن:

١ - قوله تعالى: (ما المسيحُ ابنُ مَرْيم إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل، وأُمُّه صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعَام) (المائدة ٧٥).

فكنى بأكل الطعام عن البول والغائط إذ لابد من عملية الطرد لكل آكل، لكنه

---

(١) كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلى العشاء الآخرة أو يرقد، ثم يحرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى الليلة القابلة، وبنزول هذه الآية أحل لهم كل شيء من المغرب إلى الفجر. تختانون أنفسكم: تظلمونها حظها من الخير.

(٢) الصحاح للجوهرى، قذور: اسم امرأة.

استقبح فى الآية ذكر ذلك فكنى عنه.

وقد أنكر الكناية - فى - الآية - الجاحظ، وقال: بل الكلام على ظاهره، ويكفى فى الدلالة على عدم الإلهية أكل الطعام نفسه، لأن الإله هو الذى لا يحتاج إلى شىء يأكله، ولأنه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثاً، كذلك لا يكون طاعماً»[١] وقد علق ابن سنان الخفاجى على هذا وقال: وهذا صحيح[٢].

ونقل الثعالبى عن الجاحظ أيضاً فقال: عابهم الجاحظ بهذا التفسير وقال «كأنهم لم يعلموا أن مس الجوع وما ينال أهله من الذلة والعجز أدل دليل على أنهم مخلوقون، حتى يَدَّعوا على الكلام شيئاً قد أغناهم الله عنه»[٣].

لكن الكناية أوقع وأدل على الغرض، لأن الكناية عن الغائط فيه تشنيع وبشاعة على من اتخذهما آلهة.

٢ - وقوله تعالى فى الحديث عن السيدة مريم: (والَّتى أَحْصَنتْ فرجَها فنفخْنا فيها من روُحِنا، وجعَلْناها وابْنها آيةً للعالَمين) (الأنبياء ٩١).

يقول الزركشى: «أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقى، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها، وهى كناية عن فَرْج القميص، أى لم يَعْلَقْ ثَوْبَها ريبة، فهى طاهرة الأثواب وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل، وليس المراد غير هذا، فإن القرآن أنزه معنى، وألطف إشارة، وألمح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل»[٤].

٣ - ويقول: (ولا تَجْعل يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِك، ولا تَبْسُطْها كل البسط، فتقعُدَ مَلوماً محسُوراً) (الإسراء ٢٩).

فالغل إلى العنق كناية عن البخل، وفى الكناية تصوير محسوس لهذه الصفة الذميمة فى صورة منفرة، والبسط كناية عن الإسراف والتبذير، وهو تصوير له

---

(١) البرهان جـ٢/٣٠٤.

(٢) سر الفصاحة ١٥٨.

(٣) الكنايات ٢٩.

(٤) البرهان جـ/٣٠٥.

بصورة ملموسة تجعل المعنى قويًا مؤثراً.

٤ – وقوله: (فِيهِنَّ قاصراتُ الطَّرفِ لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبلهم ولا جَانٌّ) (الرحمن ٥٦).

فقصر الطرف كناية عن العفة، وأن نساء أهل الجنة يقنعنَ بأزواجهن فلا يتطلعن لغيرهم.

٥ – وقوله تعالى يمن على المسلمين بالنصر: (وأَوْرَثكم أَرْضَهم وديَارهم وأَمْوالهم وأَرْضاً لم تَطَؤوها) (الأحزاب ٢٧).

«ظاهر الآية دال على أن الأرض هي: العقارات، والديار: هي المساكن، والأموال: هي المنقولات، وقوله: (وأَرضاً لم تَطَئُوها) يحتمل أن يكون كناية عن فروج النساء ونكاحهن، وهذا من جيد الكنايات ونادرها، لمطابقتها لقوله تعالى: (نساؤكم حَرْثٌ لكم) (البقرة ٢٢٣).

والحرث بما يكون فى الأرض، فلهذا ازدادت رشاقة وحسنا[١].

وعلى الجملة فلا نجد معنى من هذه المعانى فى الكتاب العزيز يأْتى إلا بلفظ الكناية، لأن المعنى الفاحش متى عبر عنه بلفظه الموضوع كان الكلام معيباً من جهة فحش المعنى، ولذلك نقل «قدامة» أنهم عابوا على امرئ القيس قوله:

فمثلكِ حُبْلى قد طرَقْتُ ومُرْضِعٍ فأَلْهَيْتها عَنْ ذِي تَمائمَ مُحْوِلِ
إذا مَا بكَى مِن خَلْفِها انصرفتَ له بِشِقٍّ وتَحْتِي شِقُّها لَمْ يُحَوَّلِ

من جهة فحش المعنى[٢]. يريد أنه عبر عنه بلفظه، فجاء الكلام فاحشاً، وهو عيب تنزه عنه القرآن الكريم.

ولو استعار امرؤ القيس لمعناه هذا لفظ الكناية كما فعل فى قوله:

(١) الطراز جـ/٦ ٤٠.
(٢) نقد الشعر ١٨، الطروق: الإتيان ليلا، المرضع: التى لها ولد رضيع، التمائم: الكتب التى تعلق على عنق الصبى، محول: أتى عليه حول.

ألاَ زَعَمتْ بَسْباسَة اليوم أنَّنى كَبِرتُ، وألاَّ يُحْسِن السرَّ أمْثَالى

لم يكن إلى عيبه من سبيل، وقد ذهب كل من فسر شعره من العلماءِ أنه أراد بالسر الوَقاع[1]. كقوله تعالى: (ولكنْ لا تواعِدُوهُنَّ سرًّا) (البقرة ٢٣٥).

كما عابوا على المتنبى قوله:

إنِّ على شَغَفِى بما فى خُمْرها أَعِفُّ عَمَّا فى سَرَاوِيلاَتهـا

إذ كنى عن مكان الاستمتاع من المرأة بـ«عما فى سراويلاتها»، والشاعر مع استعماله الكناية لم يوفق فى اختيار الألفاظ التى توفى الغرض منها، فقد عَبَّر بلفظ «أعف» وهو شديد الصلة بمكان الاستمتاع، كذلك لفظ «سراويلاتها» شديد الصلة بذلك المكان - ففى محاولته البعد عن التعبير المستقبح لم يوفق، حيث جاء بالفاظ وكأنها تنطق بالفحش لقرب تخيل هذا المكان للذهن عند ذكر مثل هذه الألفاظ، وهذا مما بعد بالكناية عن الغرض المطلوب، وهو تنزيه اللسان عن النطق بما يستقبح ذكره.

وقد مثلوا لما هو أخف من هذا بقول الشريف الرضى:

أحنّ إلى ما تضمن الخمر والحلى وأصدف عما فى ضمان المآزر

فقد كنى بـ«ما فى ضمان المآزر» عن مكان الاستمتاع من المرأة، وقد بعد بهذه الكناية عن ذكر المستقبح.

ومع هذا فكنايات القرآن عن هذا الغرض أحسن وأبلغ، وأين الثرى من الثريا؟، وفرق بين كلام المخلوق وصناعة الخالق؟.

٦ - وقوله: (يَأَيُّها الَّذين آمَنوا إذَا لَقِيتم الَّذين كَفَرُوا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهُم الأدْبَارَ ومَنْ يُوَلِّهم يَوْمئذٍ دُبُرَه إلاَّ مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أوْ مُتَحَيِّزًا إلى فِئَةٍ فقد بَاء بغضبٍ من الله وَمأوَاه جهنَّمُ وبِئْسَ المصير) (الأنفال ١٥، ١٦).

فالأدبار جمع دُبُرٌ وهو الخلف، ويقابله القُبُل، وهو القدام، ويكنى بهما عن

---

(١) تحرير التحبير ١٣.

السوأتين، وتولية الأدبار كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوجها إلى دبره ومؤخره، وذلك أعون له على إدراكه وقتله. والمعنى - لا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين، والعدول عن لفظ الظهور إلى الإدبار تقبيح للانهزام وتنفير منه، ففيه تصوير للفرار بصورة بشعة تشمئز منها النفس، وتحفز الهمة، وتثير فى النفس النخوة.

وقد جاءت الكناية نفسها وكان المراد منها تشجيع المسلمين على القتال والاستبسال فى محاربة اليهود، يقول تعالى: (لن يَضرُّوكم إلا أذًى وإن يُقَاتلوكُمْ يُولوكم الأدْبار) (آل عمران ١١١)، وقوله: (لئن أُخْرِجُوا لا يخرجون مَعَهم ولئن قوتِلوا لا يَنْصُرونهم ولئِنْ نَصَرُوهم لَيُوَلُّنَّ الأدْبارَ ثم لا يُنْصَرون) (الحشر ١٢).

فتولية الأدبار هنا كناية عن انهزام اليهود وتشجيعاً على قتالهم والنيل منهم وتصغيراً لشأنهم وتحقيرهم.

٧ - وقوله: (هأنتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونهم ولا يُحِبُّونكم وتُؤمنون بالكتاب كُلِّهِ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عَليكم الأناملَ من الغيْظ) (آل عمران ١١٩).

فعض الأنامل عادة النادم العاجز وهو كناية عن شدة الألم والغيظ لما يرونه من ائتلاف المسلمين واجتماع كلمتهم ونصرة الله تعالى إياهم بحيث عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلا إلى التشفى حتى اضطروا إلى مداراتهم.

٨ - وقوله: (وهو الَّذى كَفَّ أيْدِيَهُمْ عنكم وأيْدِيَكُمْ عنهم بِبَطْن مكة من بَعْد أنْ أظفرَكم عليهم وكان الله بما تَعْمَلون بصيراً) (الفتح ٢٤).

فالمعنى قضى بينكم وبينهم بالمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة، «كف الأيدى» أبلغ من منع القتال، لأن كف الأيدى يستلزم منع القتال بالدليل.

٩ - وقوله: (يأيها النبى إذَا جاءَكَ المؤمنات يُبايعْنَك على ألا يُشْركْن بالله شيئاً ولا يَسْرقْن ولا يَزْنين ولا يَقْتلْن أوْلاَدهن ولا يَأتِينَ ببُهتَانٍ يَفْتَرِينه بَيْنَ أيْدِيهن وأرْجُلِهن...) (الممتحنة ١٢).

فقد كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك، كنى بالبهتان

المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذبا، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ومخرجه بين الرجلين[1].

١٠ – وقوله : (وأُحِيط بثَمره فأَصْبح يُقلِّب كَفَّيْه على ما أنْفق فيها وهى خاويةٌ على عُروشها) (الكهف ٤٢). فتقليب الكفين كناية عن التحسر والندم على ضياع جهده وماله.

١١ – وقوله : (ولما سُقِط فى أيديهم، ورأَوْا أنهم قد ضَلوا، قالوا : لئن لمْ يَرْحَمْنا ربنا ويغفرْ لنا لنكونَنَّ من الخاسرين) (الأعراف ١٤٩).

فالسقوط فى اليد كناية عن الندم، لأن من شأن النادم أن يعض يده فيُسقط فمه فيها، وكان قوم موسى قد ندموا على عبادتهم العجل.

١٢ – وقوله تعالى : (ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْه، يقول : يا ليتنى اتَّخذْتُ مع الرسول سبيلا، يَاوَيْلَتا ليْتَنى لم أتخذْ فلانا خليلا، لقد أضَلَّنى عن الذِّكْر بَعْد إذْ جاءنى) (الفرقان ٢٧–٢٩).

يهاجم ابن قتيبة بعض المفسرين حيث ذهب فريق من المتسمين بالمسلمين – على حد تعبيره – إلى أنه رجل بعينه، وقالوا : لم كنى عنه؟ وإنما يكنى هذه الكناية من يخاف المبادأة، ويحتاج إلى المداجاة.

ثم يذكر تفسير ابن عباس للآية وقصة عقبة بن معيط حين صنع طعاما، ودعا أشراف مكة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيهم، فيمتنع أن يطعم أو يشهد عقبة بشهادة الحق، ويأتيه أبىّ بن خلف – وكان خليله – فيتهمه بالصبأ، فيجيب : بأن رجلا من قريش قد دخل عليه، وهو يستحى أن يخرج من منزله دون أن يطعم. فيقول أبى : ما كنت لأرضى حتى تبصق فى وجهه، وتفعل به، وتفعل، ففعل ذلك، فأنزل الله هذه الآية، وهذان الرجلان سبب نزولها.

ثم يعلق ابن قتيبة على هذه الأقوال، فيقول :

لو نزلت هذه الآية فقال : (ويوم يعض الظالم) قارون، وهامان، وعقبة بن

(١) الكشاف جـ/٤١٥.

معيط، وأبى بن خلف، وعتبة بن أبى ربيعة، وشيبة بن أبى ربيعة، وفلان وفلان - بالأسماء - [على أيديهم]، يقولون: يا ليتنا لم نتخذ فرعون، ونمروذ، وعقبة، وأبا جهل وفلانا، وفلانا - بالأسماء - لطال هنا وكثر وثقل، ولم يدخل فيه من تأخر بعد نزول القرآن من هذا الصنف، وخرج من مذاهب العرب، بل من مذاهب الناس جميعا فى كلامهم.

فكان [فلان] كناية عن جماعة هذه الأسماء. وقد يقول القائل: ما جاء إلا فلان ابن فلان - يريد أشراف الناس المعروفين، والشاعر يقول:

* فى لُجَّةٍ أمسِكْ فلاناً عن فُلِ *

يريد: أمسك فلانا عن فلان، ولم يرد رجلين بأعيانهما، وإنما أراد أنهم فى غمرة الشر وضجته، فالحجزة تقول لهذا: أمسكْ، ولهذا كُف.

والظالم: دليل على جماعة الظالمين، كقوله تعالى: (ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا) (النبأ ٤٠).

١٣ - وقوله تعالى: (ومَنْ أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذَّب بالحق لَمَّا جاءه) (العنكبوت ٦٨)، فالمراد بقوله [لما جاءه] أى أنه سفيه الرأى - يعنى - لم يتوقف فى تكذيب وقت ما سمعه، ولم يفعل كما يفعل المراجيح العقول، المتثبتون فى الأشياء، فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر أو سمعوا خبرًا أن يستعملوا فيه الروية والفكر، ويتأنوا فى تدبره إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه.

ألا ترى إلى قوله تعالى: [لما جاءه] أى أنه ضعيف العقل، عازب الرأى، فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، وهو قوله [لما جاءه] وذلك آكد وأبلغ.

ومن هذا الباب قوله تعالى: (وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيناتٍ قالوا: ما هذا إلاَّ رجل يريد أنْ يَصُدَّكم عما كان يعبدُ آباؤكم، وقالوا ما هذا إلا إفْكٌ مُفْترى، وقال الذين كفروا للحق لَمَّا جاءهم، إنْ هذا إلا سحرٌ مبين) (سبأ ٤٢)[1].

* * *

(١) تأويل مشكل القرآن ١٩٩ وما بعدها.

(٢) الجامع الكبير ١٦٠.

وفى الأخبار النبوية أن رجلا يقال له : أنجشة، وكان فى بعض أسفاره، فحدا بالإبل، فطربت لحسن حُدائه، فأسرعت فى سيرها وعليها النساء، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويحك يا أنجشة : سوقك بالقوارير[1].

فهذه كناية لطيفة، وإنما كنى عنهن بالقوارير، لأمور ثلاثة :

أولا : فلِما هُنَّ عليه من حفظ الأجنة، والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها.

ثانياً : لاختصاصهن بالصفاءِ والصقالة والحسن والنضارة.

ثالثاً : فلِمَا فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغير والانثلام، كما يتسارع الانثلام إلى القارورة لرقتها[1].

وورد عن الرسول أنه قال : «كانت امرأة ممن كان قبلنا»، وكان لها ابن عم يحبها، فراودها على نفسها فامتنعت منه، فأصابتها سنة مُجْدِبة، فجاءت إليه تسأله، فراودها، فمكَّنته من نفسها، فلما قعد منها مقعد الخائن، قالت له : اتق الله ولا تفْضُض الخاتَمَ إلا بحقه، فقام وتركها.

فكَنَّتْ بالخاتم عن بكارتها، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذى لم ينكسر خاتمه.

وقوله عليه السلام فى غزوة بدر حين رأى أهل مكة يريدون حربه :

«هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها، يريدون أن يحادوا الله ورسوله».

فكنى بقوله : «أفلاذ كبدها» عن الرؤساءِ والأكابر، لأن الكبد من أعز أعضاءِ الإنسان، فكنى بها عنهم.

* * *

وروى أن امرأة جاءت إلى عائشة - رضى الله عنها - فقالت : أقَيِّدُ جملى، فقالت لها عائشة : لا. وأرادت المرأة أنها تصنع بزوجها شيئاً يمنعُه عن غيرها، أى تَرْبطُه أن يأتى سواها. فظاهر هذا اللفظ يفيد تقيد الجمل، وباطنه أنها جعلته كناية عن منع الزوج من الزواج بغيرها.

---

(١) الطراز جـ١/٤٠٧.

ولما عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن مصر وولاها ابن أبى السرح، دخل عمرو على عثمان، فقال له : يا عمرو، أشعُرتَ أن اللقاح درّت بعدك ألبانها؟ فقال : لأنكم أعْجَفْتُم أولادها[1].

فكنى عثمان عن خراج مصر باللقاح، وكنى عمرو عن جود الوالى بعده بأنه حرم الرزق أهل العطاءِ ووفره على السلطان بإضعاف الأولاد.

ومن الكناية قولهم : «قلب له ظهر المِجَنّ» كناية عن أنه يبدو له خلافَ ما كان يعهده منه من الأُلفة والمودة.

وقولهم : «فلان ورِمَتْ أنفُه» إذا كان مغتاظاً يظهر الحَنَقَ والغضب.

وقولهم : «الآن حَمِى الوَطيس» كناية عن شدة الحرب والتحامها، والوطيس : التنور.

وقولهم : «لبس له جِلْدَ النمر» كناية عن كثرة العداوة وعظم الحقد.

* * *

ومن الكناية قول الشاعر :

وما يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنى جَبَانُ الكَلْبِ مهْزولُ الفَصِيل

فكنى عن كرم نفسه وكثرة قراه بجبن الكلب، لإلفه الضيف، وهزال الفصيل، لأنه يذبح أمه للضيف ويحرمه من لبنها، فيضعف، ومن ذلك :

يكادُ إذا ما أبصَرَ الضيْف مقبلاً يُكلِّمُه من حُبِّه وهو أعجمُ

ومنها قول الشاعر :

أبت الروادفُ والثُّدِىُّ لقُمْصِها مَسَّ البطون وأنْ تَمَسَّ ظُهورَا

ويروى ابن رشيق[2] أن النجاشى الحارثى هجا «بنى العجلان» فاستعدوا عليه

(١) العقد الفريد جـ٢/١٠، اللقاح : الإبل، واحدتها لقوح كصبور، وهى الناقة الحلوب.
(٢) العمدة جـ١/٢٧.

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فسألهم : ما قال فيكم ؟ . . فأنشدوه قوله :

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ وَرِقَّةٍ فعادِى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال له عمر : إنما دعا فإن كان مظلوماً استجيب له ، وإن كان ظالما لم يستجيب له ، قالوا : وقال أيضاً :

قبيلةٌ لا يغدرُون بذِمَّةٍ ولا يَظْلمون الناسَ حَبَّةَ خَرْدَل

فقال عمر : ليت آلُ الخطاب هكذا ! قالوا : وقد قال أيضاً :

ولا يَرِدُونَ الماءَ إلا عَشِيَّةً إذا صَدَرَ الوُرَّادُ عن كُلِّ مَنْهل

فقال عمر : ذلك أقل لِلُّكاك[1] ! قالوا : وقد قال أيضاً :

تعافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهم وتأكل من كعْبٍ وعَوْفٍ وَنَهْشَل

فقال عمر : أجنَّ القوم موتاهم ، فلم يضيعوهم ! قالوا : وقد قال :

وما سمى العَجْلانُ إلاَّ لِقيلهم خُذِ القَعْب ، واحلبْ أيها العَبْدُ واعْجل[2]

فقال عمر : خير القوم خادمهم ، وكلنا عبيد الله ! وكانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف ، إلى أن هجاهم به النجاشى فضجروا منه وسبوا به .

ثم بعث إلى حسان بن ثابت ، والحطيئة - وكان محبوساً عنده - فسألهما ، فقال حسان : لم يهجه ، ولكن سلح عليه .

فهدد عمر النجاشى ، وقال له : إن عدت قطعت لسانك .

* * *

فالشاعر حاول بمهارته ألا يجعل هجوه صريحاً سافراً ، فستره وراء عباراته ،

---

(١) اللكاك : الزحام .

(٢) القعب : القدح الضخم ، يعنى أن أباهم كان عبداً يحلب اللبن ، والأبيات تحتمل المدح - كما رأى سيدنا عمر - وتحتمل الهجاء ، وهذا ما سماه علماء البديع بالتوجيه .

وحجبه خلف كناياته، وعمر - رضى الله عنه - يريد ألا يطيل أمد الخصومة ويوسع شقة الخلاف بين المتنازعين لئلا يتمادى الشاكون فى خصومتهم، ويتشددوا فى طلب العقوبة، فحاول أن يحمل الكلام على حقيقته فى سبيل قبر الفتنة فى مهدها وحمل الشعر على أحسن جهاته، لكن لما أصرَّ القوم على فهم الشعر على الوجه الذى يصرح بالشر، لم يشأ أن ينفرد بالحكم، فالتمس التأييد من ذوى الخبرة من الشعراء، فكان هذا الحكم الذى طابق ما فى نفسه، وإلا فما كان ليغير رأيه بكلمة يقولها حسان.

فالشاعر كان بارعًا فى هجاءِ القوم وسترصفه «البخل والتقتير» فى البيتين الأخيرين، وصفة «الذلة والهوان» فى البيتين قبلهما، وإخفاءِ ذلك وراء عبارات الأبيات، وهذان البيتان لا نكاد نرى فيهما شيء من الذم - فى عصرنا الحاضر - بل يوشك أن يكون مدحاً خالصاً، لكن معانى البيتين فى البيئة البدوية من أوجع الشتم، وأدل على الذلة والهوان.

الكناية وعلم النفس:

ومن الأمثلة والشواهد السابقة ندرك أن الأسلوب الكنائى يقوم على أساس التلازم الذى هو أحد عوامل «تداعى المعانى» لأننا حين نستخدم الملزوم نريد اللازم، فإذا كنينا عن الكرم بكثرة الرماد مثلا، فذلك لما بين كثرة الرماد والكرم من تلازم، لأن الكرم يستلزم تقديم الطعام للضيفان، وذلك يستلزم كثرة الطبخ وهذا يستلزم كثرة إيقاد النار، وذلك يستلزم كثرة تخلف الرماد[1].

الكناية والمجاز:

وأكثر علماءِ البيان عدَّ الكناية من أنواع المجاز[2] ومن هؤلاء ابن الأثير[3]، لأن اللفظ فيها مستعمل فى غير ما وضع له، فقد أطلق وأريد به معنى آخر غير معناه الأصلى.

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى ٤٦.

(٢) الطراز جـ١/٣٧٥.

(٣) المثل السائر جـ٣/٥٥.

ورأى العز بن عبد السلام أن الكناية نوعاً من الحقيقة فقال : «فالظاهر أن الكناية ليست من المجاز، لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له وأردت به الدلالة على غيره، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له»[١].

وعبد القاهر ومن تبع مذهبه كالسكاكى يرى أن الكناية حقيقة إذ أن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له، سواء أكان ما وضع له مقصوداً لذاته، أم مقصوداً لينتقل منه إلى غير الموضوع له[٢].

أما الخطيب فقد جعلها واسطة بين الحقيقة والمجاز، فهى ليست حقيقة، لأن اللفظ لم يرد منه المعنى الحقيقى، بل أريد لا زمه، وليس مجازاً، لأن المجاز لا بد له من قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، وقرينة الكناية غير مانعة.

* * *

وليس كل كناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقى، فقد يمتنع المعنى الحقيقى لخصوص المادة، أو لأنه غير متحقق فى الواقع، كقوله تعالى : (الرحمن على العرشِ اسْتَوى) (طه ٥) فالاستواء كناية عن الاستيلاء والسيطرة، فالمعنى الحقيقى هنا يمتنع إذ يستحيل أن ينسب إلى الله تعالى الاستواء بمعناه الحقيقى وهو الجلوس.

ومثله قوله تعالى : (وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولةٌ غلَّتْ أيديهم ولعِنوا بما قالوا بل يَدَاه مبْسُوطتان يُنْفِق كيف يَشاء) (المائدة ٦٤) فغل اليد كناية عن البخل، وبسطها كناية عن الجود، واليد بمعناها الحقيقى وهو الجارحة مستحيل على الله تعالى.

وهذا لا يمنع من عد مثل هذه الأساليب من الكناية، لأنه لولا خصوص المادة لجازت إرادة معانيها الحقيقة.

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ٣٧٥.

(٢) البلاغة التطبيقية ٢٣٣، الدلائل ٥١.

أقسام الكناية

بحث البيانيون القدامى الكناية دون أن يصنفوها ويقسموها إلى أقسام وكان بحثهم لها مقصوراً على الغرض منها والهدف من وجودها «كالكناية عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، ويستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بألفاظ مقبولة تؤدى المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح، مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع، إلى ما يقوم مقامه من كلام تأذن له الأذن، ولا يحجبه القلب، وما ذلك إلا من خصائص البلاغة، ونتائج البراعة، ولطائف الصناعة»[١].

ولكن المتأخرين من علماء البيان قسموا الكناية إلى تقسيمات عدة - كالكناية عن صفة، أو موصوف، أو نسبة، أو تكون تعرضاً، أو تلويحاً، أو إشارة، أو رمزاً، أو إيماءً، وقد تكون بعيدة أو قريبة، ظاهرة أو خفية[٢]. وسنجتزىء منها بأبرز هذه التقسيمات.

١ - الكناية عن صفة[٣]:

كقوله تعالى فى ذم أحد سادات قريش: (سَنَسِمُه على الخرطوم) (القلم ١٦).

أى سنعلمه بعلامة على أنفه تظل باقية لا يمحى أثرها، - قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومى - فالوسم على الخرطوم: كناية عن صفة المهانة والذلة التى تلحقه، والوعيد الذى يصيبه، وقيل: خُطِم[٤] يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه.

ومثلها قوله تعالى فى وصف الهول والشدة التى تكون يوم القيامة: (يوم يُكْشَفُ

---

(١) النهاية فى الكناية ص ١.
(٢) شروح التلخيص جـ ٤/ ٢٦٥.
(٣) المراد الصفة المعنوية كالجود والشجاعة لا النعت النحوى.
(٤) خطم أنفه: ألصق به عاراً ظاهراً.

عن ساقٍ ويُدْعَوْن إلى السُّجود فلا يَسْتَطيعون) (القلم ٤٢) فكشف الساق كناية عن شدة الروع والفزع «ولا كشف ثَمَّ ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ولا يد ثَمَّ ولا غل، وإنما هو مثل فى البخل»[1].

ومنها ما رواه البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - قال لما نزلت هذه الآية : (وكلوا واشْربُوا حتَّى يتبَيَّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفَجْر) (البقرة ١٧٢)، عمدت إلى عقالين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، قال : فجعلتهما تحت وسادتى، قال : فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بالذى صنعت، فقال : «إن كان وسادك لعريضاً».

فالوساد العريض - فى قول الرسول - كناية عن قلة فهمه، فعرض الوساد - المخدة - يستلزم عرض القفا، وعرض القفا يستلزم قلة الفهم ونقصان الكياسة وعدم الفطانة.

٢ - الكناية عن موصوف :

كقوله تعالى فى قصة سيدنا نوح عليه السلام : (وحَمَلْناه على ذَاتِ ألواحٍ وَدُسر) (القمر ١٣).

فقد كنى بالألواح والدسر عن السفينة، لأن مجموع الأمرين وصف مختص بالسفينة.

وقوله : (أوَمَن يُنَشَّؤُ فى الحِلْيةِ وهُوَ فى الخِصام غيرُ مُبين) ؟ (الزخرف ١٨).

كنى بهذا عن المرأة، لأن هذان المعنيان : التنشئة فى الزينة والنعمة، وعدم القدرة على الإبانة فى الجدال من صفات النساء.

وكان المشركون قد زعموا أن الله اتخذ ولداً، وجعلوا الولد الملائكة، وجعلوها إناثاً، وفى ذلك يقول الله سبحانه يدفع ما يتوهمونه : (وجَعلُوا لهُ من عباده جزءًا إنَّ

---

(١) الكشاف جـ٤/٤٧٦.

الإنسانَ لكفورٌ مبينٌ. أم اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بنات وأصفاكمْ بالبنين، وإذ بُشِّر أحدُهم بما ضَرَب للرحمن مَثَلاً ظلَّ وجْهُهُ مسْوَدًّا وهو كَظِيم. أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُ فى الحلية وهو فى الخصَام غيرُ مُبين).

فالآية رَدٌّ على زعم المشركين فى أن الملائكة بنات الله.

وقد اجتمعت الكناية عن صفة وعن موصوف فى قول المتنبى يمدح سيف الدولة لما ظفر ببنى كلاب:

فَمَسَّاهم وبُسْطُهم حريرٌ وصبَّحهم وبُسْطهم تُرابُ
ومَنْ فى كفِّه منهم قناةٌ كمن فى كفِّه منهم خِضَابُ

ففى البيت الأول كناية عن صفة، إذ كنى بـ «بسطهم حرير» عن السيادة والعزة، وكنى بـ «بسطهم تراب» عن المهانة والذلة.

وفى الثانى: كناية عن موصوف، إذ كنى بـ «من فى كفه منهم قناة» عن الرجل، وكنى بـ «من فى كفه خضاب» عن المرأة، والمعنى: أن أعداء سيف الدولة قد ضعفوا أمام قوته فكان الرجل والمرأة بمنزلة سواء.

٣ - كناية عن نسبة:

كقوله تعالى: (أَنْ تقُول نفسٌ ياحَسْرَتَا على مَا فَرطتُ فى جَنْبِ الله) (الزمر ٥٦).

فَرط فى جنبه وفى جانبه: يريد فى حقه.

قال جميل بن معمر يستعطف صاحبته بثينة:

أَما تَتَّقِين الله فى جَنْب وامقٍ له كبدٌ حَرَّى عليك تَقَطَّعُ
غريبٌ مشوقٌ مولعٌ بادِّكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولعُ [1]

(١) وامق: شديد المحبة، يعنى نفسه، حرى: أى ذات حر واحتراق، وقد خاطبها خطاب جمع المذكر تعظيمًا لها.

المعنى : أما تخافين الله فى جنب وامق - أى فى حقه الواجب عليك - فالجنب كناية عن ذلك، وهذا من باب الكناية، لأنك إذا أثبت الأمر فى مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه، ألا ترى إلى قوله :

إن السَّماحة والمروءة والنَّدَى فى قبَّةٍ ضرِبَتْ على ابنِ الحَشْرج[1]

فالماهرون بصناعة البيان قد يُريدون إثبات معنى من المعانى لإنسان أو نفيه عنه، فيميلون عن طريق التصريح إلى طريق الكناية - عن جعلها فيه - إلى جعلها فى شىء يشتمل عليه، وبذلك يتوصلون إلى ما أرادوا من الإثبات أو النفى، لا عن الطريق الصريح والمكشوف بل من طريق يَخْفى ويَدِق، وذلك أفخم للأسلوب وأدعى لفضله.

فالشاعر زياد الأعجم فى البيت الأخير أراد أن يثبت الخلال الثلاث للممدوح فترك الطريق الواضح الصريح عن عمد وإصرار، وعمد إلى الكناية، وجعل كون الخلال الثلاث فى القبة التى نصبت عليه، كناية عن كونها فيه، لأن تلك الصفات تتطلب محلا تقوم به لاستحالة قيامها بنفسها، ولما كانت القبة لا تصلح لأن تكون محلا لهذه الخصال، كان ذلك إشارة لإثباتها لصاحب القبة، لأنه إذا أثبت الأمر الذى لا يقوم بنفسه فى مكان الرجل وحيزه فقد أثبت له.

ومنه قول الشَّنْفَرى يصف امرأة بالعفة :

يبيتُ بمنجاةٍ من اللَّوم بيتُها إذا مَا بُيوتٌ فى الملامةِ حَلَّتِ

نفى اللوم عنها بأن نفاه عن بيتها الذى تقيم فيه، وذلك يستلزم نفى اللوم عنها، وقد عبر فى البيت بـ «يبيت» دون «يظل، لأن الليل مسرح الفجور وانتشار المقابح.

ومثله قولهم : «مثلك لا يبخل» قال الزمخشرى : نفوا البخل عن مثله، وهم

---

(١) البيت لزياد الأعجم يمدح عبدالله بن الحشرج أمير نيسابور، وهو من باب الكناية، يعنى أنه مختص بتلك الصفات ولا خيمة هناك ولا ضرب، المروءة : الإنسانية، القبة : مأوى فوق الخيمة فى العظم والاتساع، ضربت : نصبت : «انظرمشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف جـ ١٠٦/٤».

يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية، لأنهم إذا نَفَوْه عمن يسد مَسدَّه، وعمن هو على أخص أو صافه، فقد نفوه عنه.

ونظيره قولك للعربى: العرب لا تخفر الذمم. كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر، ومنه قولهم: أيفعَتْ لداته، وبلغت أترابه، يريدون إيفاعه وبلوغه[١].

أما قوله تعالى: (ليس كَمِثْله شىء وهو السميعُ البصيرُ) (الشورى ١١).

فبعض أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف، بل على وجوب زيادتها فى هذه الآية، فراراً من المحال العقلى الذى يفضى إليه بقاؤها على معناها الأصلى من التشبيه، لأنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل مثل الله، ويكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه.

والبعض ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدى إلى ذلك المحال. لأن نفى مثل المثل يتبعه فى العقل نفى المثل أيضاً على طريق الكناية، وتكون الآية كناية عن نفى المماثلة عن ذاته تعالى بالطريق الأبلغ، وحينئذ لم يقع فرق بين الآية: (ليس كمثله شىء) وقولنا: «ليس مثله شىء» إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، وكونهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد، وهو نفى المماثلة عن ذاته[٢].

لكن أحد المفكرين المعاصرين له توجيه آخر فيقول[٣]:

«وقصارى هذا التوجيه - لو تأملته - أنه مصحح لا مرجح، أى أنه ينفى الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته، ولا يبين مسيس الحاجة إليه، ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضرباً من التعمية والتعقيد؟

ولو رجعت إلى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف فى موقعه محتفظاً بقوة دلالته،

---

(١) الكشاف جـ٤/١٦٦، أيفع: ارتفع؛ انظر استعمال مثل وغير فى كتابنا «المعانى فى ضوء أساليب القرآن» ص ١٩١.

(٢، ٣) النبأ العظيم ١٣٣.

قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود فى جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى.

فلو قيل: «ليس مثله شيء» لكان ذلك نفياً للمثل المكافىء، وهو المثل التام المماثلة فحسب، وإذا دب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام أن لعل هناك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما فى قدرته أو علمه، فكان وضع هذا الحرف فى الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة، وهذا من باب التنبية بالأدنى على الأعلى، على حد قوله تعالى: (فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما) (الإسراء ١٧)، نهيا عن يسير الأذى صريحًا، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى».

* * *

التعريض

قال تعالى: (ولا جُنَاحَ عليكم فيمَا عَرَّضتم به من خِطْبَةِ النِّساءِ أوْ أكْنَنْتُم فى أنفسكم) (البقرة ٢٣٥).

فى أثناء عدة المرأة لا يجوز - عن طريق التصريح أو المجاز أو الكناية - طلب النكاح منها، ولكن لا بأس من التعريض بهذا الطلب، كقول طالب الزواج لها: إنك لمرغوب فيك لأحوالك الجميلة، أو إنى لمحتاج إلى من آنس به، أو إنك لصالحة، أو عسى أن ييسر الله لى امرأة صالحة، فهذا أو أمثاله مما لا يدل على النكاح بحقيقته أو مجازه ولا من جهة مفهومة، يسمى «تعريضًا»، إذْ طلب النكاح منه حينئذ من جهة قرينة، أو من مدلول السياق وقرائن الأحوال.

فالتعريض لغة: ضد التصريح، يقال: عرَّضت لفلان وبفلان إذا قلت قولا

وأنت تعنيه، ومنه المعاريض[1] فى الكلام، وفى أمثالهم : «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب» أرادوا : إن المعاريض فيها سَعةٌ عن قصد الكذب وتعمده.

وفى الاصطلاح : المعنى الحاصل عند اللفظ لا به[2] - فجملة «المعنى الحاصل عند اللفظ» شامل للحقيقة والمجاز والكناية، وقولنا : لا به» مخرج لهذه جميعًا، لأن الحقيقة والمجاز والكناية، يُدل عليها بالألفاظ فهى عند ذكر الألفاظ وبها، أما التعريض فهو داخل بهذا القيد، فإنه حاصل بغير اللفظ - وهو السياق وقرائن الأحوال.

وعلى هذا يكون التعريض مباينًا للحقيقة والمجاز والكناية.

* * *

ومن أمثلة التعريض : قوله تعالى : (قالوا أأنْت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال : بَلْ فعلهُ كبيرهُم هذا، فاسألوهمْ إن كانوا يَنطِقون) (الأنبياء ٦٢، ٦٣).

فإنما أورد إبراهيم - صلوات الله عليه - هذا الكلام على جهة التهكم والاستهزاء والسخرية بعقولهم، وذلك يكون من وجهين :

أحدهما : أنه لم يُرِد نسبة الفعل إلى كبير الأصنام، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على رَمْز خفىٍّ ومسلكِ تعريض، يبلغ به إلزام الحجة لهم، والتسفيه لحلومهم، كأنه قال : يا ضعفاء العقول، ويا جهال البَريَّة، كيف تعبدون ما لا يُجيب إن سُئل، ولا ينطق إن كُلِّم، وتجعلونه شريكًا لمن له الخلق والأمر؟ فوضع قوله : (اسألوهم إن كانوا ينطقون) موضع هذا.

وثانيها : أن يقال : إن كبير الأصنام غضب لَمَّا عُبد معه غيره من هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرض إبراهيم بذلك أن يعرض بهم فى كونهم قد أشركوا فى العبادة من هو دون الله، وإن من دونه مخلوق حقير من مخلوقاته، فوضع هذا الكلام لفاحش ما أتوا به، وعظيم ما تلبسوا به من عبادة غير الله. وهذا التعريض

---

(١) المعاريض : جمع معراض وهو التورية والستر.

(٢) الطراز جـ ١/٣٨٠، ٣٨٣.

لم يدل عليه اللفظ، بل دل عليه السياق وقرائن الأحوال.

وهذا ما قصد إليه الزمخشرى حينما قال:[١]

هذا من معاريض الكلام، وقصد إبراهيم - صلوات الله عليه - لم يكن أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها، على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم.

وهذا كما قال لك صاحبك - وقد كتبت كتابًا بخط جميل، وأنت شهير بحسن الخط - أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط، ولا يقدر إلا على هرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت.

كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأمى، لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر.

ويقول صاحب تفسير الجمل[٢].

هذا على طريقة الكناية العُرضية، فهذا يستلزم نفى فعل الصنم الكبير للتكسير وإثباته لنفسه، وهذا بناء على أن الفعل - وهو الكسر - دائر بين عاجز، وهو ذلك الصنم، وقادر وهو إبراهيم، إذ القاعدة أنه إذا دار فعل بين قادر عليه وعاجز عنه، وأثبت للعاجز بطريق التهكم به لزم انحصاره فى الآخر، وحاصله أنه أشار إلى نفسه على الوجه الأبلغ مضمنا فيه الاستهزاء.

ومن التعريض البديع قوله تعالى فيما حكاه عن قول الحواريين: (ياعيسى ابن مريَم هل يستطيعُ ربك أن يُنَزِّلَ علينا مائِدَةً من السماءِ، قال اتَّقوُا الله إنْ كنتم مؤمنين) (المائدة ١١٢ - ١١٤).

فكان غرضهم طلب المعجزة فَعَرَّضوا بالاستفهام عن استطاعة الرب لإنزال المائدة، فلما قال لهم عيسى: (اتَّقوا الله إنْ كنتم مؤمنين، قالوا نُريد أنْ نأكل منها

---

(١) الكشاف جـ٣/٩٨.

(٢) تفسير الجمل جـ٣/١٣٤.

(٣) الكشاف جـ٩٨٣.

وتطمئن قلوبنا ونعلم أنْ قد صَدَقتنا ونكون عليها من الشاهدين).

فعرضوا بذلك كله وقربوه من التصريح، ولم يصرحوا، فتحقق عند عيسى - عليه السلام - مرادهم، فقال: (اللّهمّ ربّنا أنْزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين).

فدعا باسمه العظيم الجامع، وأردفه بقوله: (رَبَّنَا) لقولهم: (هل يستطيع ربُّك) وعمم الرب إذ لا يستطيع ذلك إلا الله، وسأل الله المائدة وأن تكون عيدًا، ففي ضمن هذا تصديقهم له، وهو من التعريض البديع، وسأل أن تكون آية وذلك مما لايصح أن يكون إلا للأنبياء. ثم قال: (وارْزقنا وأنْت خير الرازقين) تعريضًا بطلب ما سألوه من الأكل منها، لأنه من الجائز أن كان أنزل عليهم مائدة، وحظر عليهم الأكل منها[1].

وقوله تعالى في شأن سيدنا نوح: (فَقَال الملأُ الذين كفَروا من قومه، ما نَرَاك إلا بشرًا مثلَنا، وما نَراك اتَّبعك إلا الذين همْ أَراذِلنا بَادِيَ الرأي، ومَا نرى لكم علَيْنا من فضْل، بل نظنكم كاذبين) (هود ٢٧).

فهذه الآية كلها، موضعها في قصدهم واعتقادهم موضع التعريض، بأنهم أحق بالنبوة، وأن نوحًا لم يكن متميزًا عليهم بحالة يجب لأجلها أن يكون نبيًّا من بينهم فقالوا: لو أراد الله أن يجعل النبوة في أحد من البشر لكانوا أحق بها دونه[2].

وقوله تعالى: (أفَحَسِبْتُم أنَّما خلقناكُمْ عَبَثًا)؟ (المؤمنون ١١٥).

فالاستفهام ورد على سبيل الإنكار، لكنه تعريض بالكفار في إنكار الرجعة والمعاد الأخروى[3]. وليس ذلك من جهة اللفظ وإنما من من جهة القرينة.

ومن هذا قوله تعالى حكاية عن المنافقين في غزوة تبوك (وقالوا: لَاتَنْفِروا في الحر، قل: نار جهنم أشدُّ حَرًّا) (التوبة ٨١) فازدياد حر جهنم، وكونه أشد من

---

(١) الأقصى القريب ٧٥، ٧٦.

(٢) الطراز جـ ١/٣٨٦.

(٣) الطراز جـ ١/٣٩٢.

حر الدنيا معلوم لدى المخاطبين بالقرآن ولا معنى لذكره و التنبيه عليه، لكن الغرض الحقيقى من هذا الكلام: هو التعريض بهؤلاء المتخلفين عن القتال المعتذرين بشدة الحر، بأنهم سيردون جهنم، ويجدون حرها الذى لا يوصف.

ومن هذا (إنما يتذكر أولو الألباب) فهو تعريض بالكفار الذين لم يتذكروا وأعرضوا عن الدعوة.

* * *

ويروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كان يخطب يوم الجمعة، فدخل عليه عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقال له عمر: أية ساعة هذه؟ فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، انقلبت من السوق فسمعت النداء، فما زدت على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضًا، وقد علمت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - كان يأمرنا بالغسل.

فقوله: أية ساعة هذه؟ تعريض بالإنكار عليه، لتأخره عن المجئ إلى الصلاة، وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب، وقد فهم التعريض من جهة أمور خارجة عن اللفظ، من نحو وقت السؤال، وحال المسئول عنه، فإيراد السؤال عند تجمع هذه الأحوال هو المسمى بـ «السياق وقرائن الأحوال».

ووقفت امرأة على قيس بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الفأر فى بيتى فقال: ما أحسن ما وَرَّت عن حاجتها، املأوا بيتها خبزًا وسمنًا ولحمًا.

ومثله ما روى أن عجوزًا تعرضت لسليمان بن عبد الملك، فقالت له: يا أمير المؤمنين، مشت جِرذان[1] بيتى على العِصىّ، فقال لها: ألطفت فى السؤال، لا جرم لأُرَدَّنَّها تَثِب وَثْب الفهود، وملأ بيتها حَبًّا.

فقد فهم قيس وسليمان ما تريد كلتا المرأتين، لا من اللفظ، ولكن من حالهما وطريقة إخبارهما، وكونهما المقصودين، وقدرتهما على إغاثة الملهوف، وذلك هو

(١) الجرذان بكسر الجيم جمع جرذ بضم الجيم وفتح الراء وهو الذكر من الفأر، وقد ضبطت الجيم فى «الجرذان» شكلا بالضم فى القاموس وغيره ضبطها بالكسر كتابة.

«السياق» فلو أن هذا القول قد صدر من غير محتاج، أو كان المخاطب بها ليس أهلا لقضاء الحاجات، لكانت هذه الأقوال من قبيل الحقيقة وليست من التعريض.

روى أنه لما حج المنصور قال للربيع أبغنى فتى من أهل المدينة أديبًا ظريفًا عالمًا بقديم ديارها، ورسوم آثارها، فقد بعُد عهدى بديار قومى وأريد الوقوف عليها.

فالتمس له الربيع فتى أعلم الناس بالمدينة وأفهمهم بظريف الأخبار، وشريف الأشعار، فعجب به المنصور، وكان يسايره أحسن مسايرة ويحاضره أزين محاضرة، فإذا سأله أتى بأوضح دلالة، وأفصح مقالة، فأعجب به المنصور غاية الإعجاب، وقال للربيع: ادفع إليه عشرة آلاف درهم، وكان الفتى مملقًا مضطرا، فتشاغل الربيع عن القضاء واضطرته الحاجة إلى الاقتضاء، فقال له الربيع: لابد من معاودته، وإن أحببت دفعت إليك سلفا من عندى حتى أعاوده فيما أمر لك.

فأبقى ذلك حتى إذا كان فى بعض الليالى قال عند منصرفه مبتدئًا، وهذه الدار يا أمير المؤمنين دار عاتكة التى يقول فيها الأحوص:

يا بيتَ عاتكة التى أتغزَّل

ثم سكت، فأنكر المنصور هذا من حاله وفكر فى أمره، فعرض الشِّعْر على نفسه، فإذا فيه:

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضهم مَذِقُ الحديث يقولُ مالا يفعل

فقال للربيع: أدفعت للرجل ما أمرنا له به؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال فليدفع إليه مضاعفًا.

يقول البغدادى معلقًا على هذا:

وهذا أحسن إفهام من الفتى، وأحسن فهم من المنصور، ولم يسمع فى التعريض بألطف منه[1].

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى جـ١/٣٥٠، المذق: بكسر الذال، من يخلط بكلامه كذبا من مذقت اللبن والشراب إذا خلطته.

وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون فى أمر بعض أصحابه فقال : أما بعد، فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته.

فوقع المأمون فى ظهر كتابه : قد عرفت تصريحك، وتعريضك لنفسك، وقد أجبناك إليهما.

ومن التعريض قول الشُّمَيْذَر الحارثى :

بنِىَ عَمِّنا لا تذكروا الشِّعر بَعْدما   دَفنتُم بصحراءِ الغُمَيْر القَوافيا

فليس قصده هنا الشعر، بل قصده ما جرى لهم فى هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك، بل ذكر الشعر وجعله تعريضًا لما قَصده، أى لا تفتخروا بعد تلك الموقعة التى جرت لنا ولكم بهذا المكان[1].

وأجمل مواقع «إنما» يكون فى التعريض، كقوله تعالى : (إنما تُنْذِر الذين يَخْشَوْن ربَّهم بالغَيْب) (فاطر ١٨) فالمراد التعريض بمن لا يخشون الله والإشارة إلى أن إنذار هؤلاء لا يجدى، فإنذارهم مثل عدمه[2].

الفرق بين التعريض والكناية

يفرق بينهما من ثلاثة وجوه :

١ - أن الكناية واقعة فى المجاز ومعدودة منه، بخلاف التعريض ، فلا يعد منه، لأن التعريض مفهوم من جهة السياق والمفهوم، فلا تعلق له باللفظ لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه.

(١) المثل السائر جـ ٧٥/٣.
(٢) انظر : المعانى فى ضوء أساليب القرآن ٢٥٥.

٢ - الكناية تقع فى اللفظ المفرد والألفاظ المركبة، بخلاف التعريض فإنه لا موقع له فى اللفظ المفرد.

والسر فى ذلك : أن دلالة التعريض من جهة القرينة والإشارة والتلويح، وهذا لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه إنما ينشأ من جهة التركيب فلأجل هذا كان مختصًا بالوقوع فيه، ولهذا لا يقال : هذه الكلمة تعريض، كما يقال : هذه الكلمة حقيقة، أو مجاز، أو كناية.

٣ - التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ، بخلاف التعريض فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة، ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح.

ومن أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف، وكنايته، وتعريضه، فأوجبوا فى الصريح من القذف الحد مطلقًا، فى قول القاذف : يا زانى، وأوجبوا فى كنايته الحد إذا نوى به، فى مثل قول القاذف : يا فاعلاً بأمه، أو مفعولا به، ولم يوجبوا فى التعريض الحد فى مثل قوله : يا وَلَدَ الحلال. وما ذاك إلا لأجل أن الصريح والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ إما بالحقيقة أو بالمجاز.

والتعريض أخص من الكناية، فكل تعريض كناية، وليس كل كناية تعريض، فهى أعم منه[1].

بلاغة الكناية والتعريض

بلاغة الكناية تتمثل فى أنها تعرض المعنى مصحوبًا بالدليل ومقرونًا بالبرهان، فبذلك تكون أبلغ من التصريح، فمثلا حينما نسمع قول جرير :

ويُقْضَى الأمرُ حين تَغيبُ تَيْمٌ ... ولا يُستـأمـرون وهم شُهـودُ

فقد رماهم الشاعر بالذلة والهوان، وأتى بالكناية دليلا على صدق دعواه،

---

(١) الطراز جـ ٢٩٧/١.

وتأييدًا لما رماهم به فقد بلغ بهم الهوان أن الناس يحسمون الأمور وهم غائبون، ولو حضروا لم يؤخذ برأيهم فى شىء.

وكذلك قول امرئ القيس:

ويُضحى فتيتُ المسكِ فوقَ فِرَاشِها نئومُ الضُّحَى، لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّل[1]

يصف الفتاة بالرفاهية والتنعم، فأتى بما يدل على هذا الترف، فذكر أن المسك المفتوت يظل إلى الضحى فوق سريرها، وأنها لا تغادر الفراش حتى هذا الوقت، وأنها دائمًا مرتدية رداء الزينة لا العمل.

كذلك يحس السامع لأسلوب الكناية جمالا، ويجد لها أثرًا لا يجده للتعبير الصريح، وذلك لأن الكناية تعرض المعنى مصورًا بصورة محسوسة فيزداد تعريفًا ووضوحًا.

فحينما نقرأ قوله تعالى: (وأُحِيطَ بثَمره فأصبح يُقَلِّب كفَّيْه على ما أنْفَق فيها وهى خاويةٌ على عُروشها) (الكهف ٤٢).

وقوله: (ويوم يعَضُّ الظالم على يَدَيْه يقول: يا ليْتَنِى اتخَذْتُ مع الرسول سبيلاً) (الفرقان ٢٧).

وقوله: (ومن النَّاس من يُجَادل فى الله بغير علمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منير، ثانِيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سبيل الله) (الحج ٨، ٩).

وقوله: (فسَيقُولون مَنْ يُعيدنا، قل الذى فَطَركم أوَّلَ مرَّة، فسَيُنْغِضُون إليك رءوسهم ويقولون متَى هو، قُلْ عسى أن يكون قريبًا) (الإسراء ٥١).

فنرى الندم فى الآيتين الأوليين، والكبر والغطرسة فى الأخيرتين بَدَا للأعين، وتمثل أمام الناظرين بما يصحبهما من حركات محسوسة تدل عليها وتشير إليها.

وقد تعدل العرب عن التصريح إلى الكناية فى الموضع التى تعسر فيها الصراحة

---

(١) النطاق: ثوب تشد به المرأة على وسطها للمهنة والعمل، التفضل: لبس الفضلة، وهو ثوب واحد للخفة فى العمل، عن: بمعنى بعد.

أو يستحيا من ذكره كما مر فى قوله تعالى : (أوْ لامَسْتم النساء)، وقوله : (وقالوا لجلودهم لِمَ شَهِدتم علينا)؟ (الأنبياء ٩١).

فالمراد من الملامسة «الجماع»، ومن الجلود «الفروج» ولعل أسلوب الكناية هو الأسلوب الوحيد الذى يجنب المرء التصريح بهذه الألفاظ.

وكتب أبو الحسين بن جعفر بن محمد بن ثوابه عن المعتضد بالله إلى خمارويه وقد أوصى خمارويه بابنته التى تزوجها المعتضد بالله، فكان مما كتب ابن ثوابة : «أما الوديعة فهى بمنزلة ما انتقل من يمينك إلى شمالك، عناية بها، وحياطة لها»، واستحسنت الكناية عن الزوجة بالوديعة حتى صار الكتاب يعتمدونها، وقال بعضهم : إن تسميتها إياها بالوديعة نصف البلاغة.

ومنه : الكناية عن «الصمم» بثقل السمع.

أو لأن الألفاظ المكنى عنها يتشاءم السامع منها، مثل ما روى أن المنصور كان يومًا فى البستان فرأى شجرة «خِلافَ» فسأل الربيع وزيره عن اسمها، فقال : «وِفَاق» يا أمير المؤمنين، فكنى الربيع بكلمة «وفاق» عن كلمة «خلاف».

ومن ذلك : كنايتهم عن «اللديغ» بالسليم، وعن «الأسود» بأبى المسك، وعن «الصحراء» بالمفازة.

أو لأن فى ذكر الكناية تأدبا مع المخاطب، مثل ما روى أن عبد الملك بن صالح أهدى إلى الرشيد باكورة فاكهة فى أطباق خَيْزُرَان، وكتب إليه : بعثت إلى أمير المؤمنين بأطباق قضبان تحمل جَنَى باكورة بستان، فقال الرشيد : ما أحسن ما كنى عن اسم أُمِّنا، وكانت أم الرشيد تسمى الخيزران.

ومثله ما روى أن الخليفة الهادى نظر إلى أحد الأشخاص وفى يده عصا من خيزران، فقال : من أى شىء هذه؟ فقال : من أصول القنا يا أمير المؤمنين.

* * *

ولما كان التعريض أخفى من الكناية لاعتماده فى دلالته على السياق دون اللفظ كان له من الأثر فى النفوس مالا تبلغه الحقيقة المجردة، أو المجاز، أو الكناية، لأنه

يعين صاحبه على إخفاءِ ما يريد من عتاب أو نقد أو سؤال أه شكاية، على الحاضرين حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده بالتعريض لما علم من أن التعريض إنما يفهم من أحوال خارجة عن اللفظ - لا من اللفظ - وهذه الأحوال قد تكون معلومة للمقصود بالكلام دون بقية الحاضرين.

لذا كان التعريض وسيلة ناجحة يستخدمها العالم البليغ فى تقويم من تأخذهم العزة بالإثم إذا أمروا بمعروف أو نُهوا عن منكر، وذلك بأن يوجه الخطاب إلى غيرهم، بإنكار أمر يفعلونه ذاكرًا ما ورد فيه من الزجر والوعيد، فى الكتاب والسنة وسيرة السلف وهم يسمعون[1].

المجاز أبلغ من الحقيقة

مجالات الحديث مختلفة، وموضوعات الكلام شتى، والجمهور المتلقى على جانب عظيم من التفاوت والاختلاف، وعلى المتحدث اللبق أن يراعى عند الحديث هؤلاء وهؤلاء، فيعطى لكل حال لبوسها ولكل قوم مقامهم، لذلك نرى المحدِّث أحيانًا يعتمد على الحقيقة البسيطة المجردة من التصوير والزينة، عندما يجد المتلقون عنه على جانب من السذاجة والبساطة، لا يستطيعون معها إدراك ما فى المجاز من تخييل وتصوير، أو يكون المجال مجال إقناع ومناقشة، فذلك مقام لا يغنى فيه التخييل والتصوير شيئًا، أو يكون المجال إلى التصوير والتخييل والزمر والتلويح ، إذا كان المتلقون عنه واعين وعلى مستوى من الثقافة يدركون ما يحتويه الكلام من الرمز والتخييل والإيحاء والتصوير.

وهكذا دائمًا حال البليغ، لابد أن يراعى حال المخاطب، فيلقى إليه الكلام بالحقيقة مجردة، أو بالمجاز والتصوير، تبعًا لحالته ومبلغ وعيه وثقافته.

فالحقيقة والمجاز وسيلتان من وسائل التعبير لا تغنى إحداهما عن الأخرى فى نقل المعنى أو رسم الصورة، فها هو القرآن الكريم حافل بأساليب الحقيقة وفنون

---

(١) البلاغة التطبيقية ٢٥٩.

المجاز جنبًا إلى جنب، ولو كان أحدهما يكفى فى التعبير لسار على نمط واحد منهما، أو لو كان أحدهما أمتع للأسماع، أو أجمع للفكرة، لاقتصر عليه دون الآخر

وإذا كان أحدهما لا يغنى عن الآخر، وكان هذا هو الحق والصواب، فما معنى ما ورد عن جُلِّ علماء البلاغة من تفضيل المجاز على الحقيقة؟

فمثلا يقول ابن رشيق : «المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعًا من القلوب والأسماع»[١]

ويقول القزوينى : «أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أجمل من التصريح بالتشبيه»[٢].

ويقول عبد القاهر : «أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة[٣]، وغير هؤلاء كثير.

وقد أجاب عن هذا التساؤل عبد القاهر فرأى أن أبلغيه المجاز على الحقيقة، وأبلغية الاستعارة على التشبيه، وأبلغية الكناية على التصريح، حينما يتفق اللفظان فى التعبير عن المعنى : ليس معناها أن الأبلغ يفيد زيادة فى أصل المعنى لا يفيدها غيره، بل المراد أنها تفيد تأكيد الإثبات للمعنى وتقريره.

فقال : «ليست المزية التى تراها لقولك : «رأيت أسدًا» على قولك : «رأيت رجلا لا يتميز عن الأسد فى شجاعته وجرأته» أنك قد أفدت بالأول زيادة فى مساواته الأسد، بل إنك أفدت تأكيدًا وتشديدًا وقوة فى إثباتك له هذه المساواة، وفى تقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن فى ذات المعنى وحقيقته بل فى إيجابه والحكم عليه.

وهكذا قياس التمثيل ترى المزية فى ذلك تقع فى طريق إثبات المعنى دون المعنى

(١) العمدة جـ ١/١٧٨.
(٢) الإيضاح ٢٠٥.
(٣) الدلائل ٥٤.

نفسه، فإذا قلت : بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، لم يدل ذلك على تردد أكثر من صريحه الذى يساويه فى القوة، من نحو قولك : بلغنى أنك تتردد فى أمرك، وأنك كمن يقول : أخرج ، ولا أخرج، فتقدم رجلا وتؤخر أخرى، وإنما الذى يفيده تأكيد الإثبات للتردد.

وهكذا الكناية، فإذا قلت : هوجَمُّ الرماد، كان أبهى لمعناك وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذى تريد، كأن تقول : هو مضياف جدًّا، فليست المزية حينئذ للكناية، أنه دل على قرى أكثر، بل أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبته إيجابًا هو أشد وأوثق[1].

أما إذا لم يتساو اللفظان فى القوة، فلا جدال فى أن الاستعارة - مثلا - تفيد حينذاك زيادة فى ذات المعنى وفى أصل الدلالة : عن التشبيه، فالذى يقول : رأيت أسدًا ، أبلغ من الذى يقول : محمد كالأسد. . ، ومعنى الأبلغية هنا : أن أسلوب الاستعارة قد أفاد زيادة فى أصل المعنى وهو الشجاعة، على المعنى الذى يؤديه أسلوب التشبيه، لما هو معروف من أن الشجاعة - مثلا - تتفاوت، فهى فى شخص أقوى منها فى شخص آخر، وكذلك بقية الصفات، كالجود والمضاء، وما شاكلها.

وهكذا الشأن فى بقية أنواع المجاز بالنسبة إلى الحقيقة، وفى الكناية بالنسبة إلى التصريح، تكون الأبلغية فى طريقة الإثبات للمعنى نفسه، حينما يتساوى اللفظان فى القوة.

أما إذا لم يتساو اللفظان فى القوة فإن الأبلغية تكون فى ذات المعنى وفى أصل الدلالة ، لأن التفاوت أمر فطرى لا يمارى فيه إنسان[2].

---

(١) الدلائل ٥٤.

(٢) البلاغة التطبيقية ٢٧٣.

كنايات أنكرتها البيئة

الكناية أساسها : لفظ أطلق وأريد به لا زم معناه، يقول الشاعر فى صفة راعى الإبل :

ضعيفُ العصا، بَادِى العروق تَرى له إذا ما أجدبَ النـاسُ إصْبَعا

فوصف الراعى بأنه «ضعيف العصا» كناية عن أنه رفيق بها مشفق عليها، فلا يوجعها بالضرب بلا فائدة.

فهنا أمران : «ضعف العصا، والرفق بها والإشفاق عليها» والأول ملزوم والثانى لازم.

والكناية بهذه الصورة من مظاهر الطبيعة الرَّعَوِية، فلا تُلْقَى إلا فى وسط البوادى، أو سوق المواشى.

وقد كان الكرم فى الماضى من أهم مظاهره الإطعام، وغشيان الدور، يقول الشاعر :

وما يَكُ فِىَّ من عيبٍ فإنِّى جبانُ الكلب مهزُولُ الفصيل

كنى عن كرمه بكنايتين :

١ - كثرة قصادة وزواره، فلا ينبح كلبه زائراً، ولا يهاجم قادماً.

٢ - تقديم القرى لضيفانه من لبن نياقه، ويذبح منها فيطعمهم ويحرم الفصيل لبن أمه، أو يحرمُه أُمَّه فيجوع ويضعف، وكان ذلك من دلائل الكرم.

وفى المعنى نفسه يقول المرار بين منقد :

لا ترى كَلْبى إلا آنِساً إنْ أتَى خابط لَيْلٍ لم يَهِرّ(١)

(١) هرت الكلاب : نبحت.

ويقول آخر :

يكادُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مقبلاً يكلمُـه من حُبّـه وهــو أعْجَمُ

ويقول حسان ابن ثابت يفتخر بكرم قومه :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضحى وأسيافُنا يقطرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَـا

فضخامة الجفنة كناية عن الكرم.

وقال النابغة الذبيانى :

رقـاق النعـال طيِّبٌ حُجُـزاتهم يُحَيَّوْن بالريْحان يـوم السّباسب[1]

فرقة النعال : كناية عن الترف، فهم لا يحتاجون لخصف نعالهم، لأنهم قلما يمشون، و «طيب حجزاتهم» كناية عن العفة، أى يشدون أزرهم على عفة.

وقالت الخنساء فى أخيها صخر.

رفيـع العـماد، طـويـل النجـا د سـاد عـشـيرتـه أمـردا[2]

فطول النجاد : كناية عن طول القامة، وقلما نجد حمالة السيف الآن، ومثله قول دريد بن الصمة يرثى أخاه عبد الله :

كميشُ الإزار، خارجٌ نصفُ ساقه بعيدٌ عن الآفات، طَلاَّعُ أَنْجد[3]

فالشطر الأول كناية عن النشاط والجد.

وقول الحجاج فى إحدى خطبه : والله ما يُقَعْقَع لى بالشْنان» والشنان : القرب الصغيرة وهو كناية عن شجاعته وعدم خوفه، وكذلك قولهم : ألقى عصا التّسْيار، ضَربَ آباطَ الإبل، فلان يشكو قلة الجرذان.

فكل تلك الكنايات لاتُحسُّ ما فيها من المدح أو الدلالة على الاستقرار،

(١) الحجزة : مجمع شد الإزار والسراويل على الجسم، السباسب : يوم الشعانين، وهو عيد النصارى.
(٢) النجاد : حمائل السيف.
(٣) طلاع أنجد : ركاب لصعاب الأمور، والأنجد : جمع نجد وهو ما ارتفع وغلظ من الأرض.

أو السرعة، أو الفقر فى عصرنا الحاضر، لأنها كنايات مضى زمن دلالتها، ولم تعد الأذواق الآن تستسيغ استعمالها، ولم تبق دلالتها على تلك المعانى إلا نقلا وحفظاً وتقليداً.

* * *

وهناك كنايات خالدة واضحة الدلالة فى كل وقت لبنائها على شىء طبيعى، لا يكاد يختلف باختلاف العصور كما ترى فى كنايات من القرآن الكريم، أمثال:

قوله تعالى: (ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيه يقول: يا لَيْتَنِي اتَّخَذْت مع الرسول سبيلاً) (الفرقان ٢٧).

وقوله: (وأُحِيط بثَمره فأصبحَ يقلِّب كفَّيْه على ما أَنْفَق فيها وهى خاويةٌ على عروشها) (الكهف ٤٢).

فهاتان كنايتان عن الندم.

وقوله: (وإنْ يَكاد الذين كفَروا ليُزلِقُونَك بأبصارهم لما سَمِعُوا الذِّكر) (ن ٥١).

كناية عن نظرهم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - نظراً يدل على العداوة والحقد.

وقوله: (ولمن خافَ مقَام ربِّه جَنَّتان.. فيهن قاصرات الطَّرْف لم يطْمِثْهُنَّ إنس قبلهم ولا جَانٌّ) (الرحمن ٤٦-٥٦).

فقصر الطرف كناية عن العفة وأنهن لا يتطلعن لغير أزواجهن.

ولهذا نجد الفرق الواضح والبعد الشاسع بين كنايات القرآن الكريم وغيرها، وصدق الله العظيم: (نَزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذِرين، بلسانٍ عربىٍّ مبين) (الشعراء ١٩٣-١٩٥).

* * *